ملامح سيكولوجية التعصب * (التعصب في المجتمع العراقي نموذجا)

مدخل نفسي لثقافة السلام

أ.د. قاسم حسين صالح – علم النفس – العراق

qassimsalihy@yahoo.com

ما سنتطرق اليه ليس بحثاً اكتملت مقوماته العلمية، إنما هو أقرب الى مقالة أو ورقة تحمل أفكاراً قد تفضي، بعد مناقشتها واغنائها، الى مشروع انساني أو برنامج عمل وطني يؤسس لثقافة جديدة تنعكس في سلوك مهذب يعتمد الحوار وسيلة للتعامل في تسوية الخلافات وحل النزاعات، والحد من التعصب الذي كان السبب في معاناة مئات الملايين من الناس، وقتل عشرات الملايين غيرهم من البشر.

والتعصب prejudice ظاهرة عالمية موجودة في كل المجتمعات ، متعددة الأسباب والمصادر والصور التي تظهر فيها . فقد تكون أسبابها دينية أو طائفية أو عرقية ... وقد تكون مصادرها سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ... وقد تحدث بصور بسيطة تأخذ شكل تجنب الاختلاط أو عدم الزواج ، إلى صور قاتمة ومرعبة... في إبادة بشرية جماعية .

وفي تاريخ البشرية ، وتاريخ الشرق الأوسط ، كان السبب الرئيس للكثير من الحروب والنـزاعات ، هو التعصب . ففي سبيل المثال ، كان مجتمع الهنود في شمال أمريكا قد انخفض من ثلاثة ملايين في القرن السابع عشر إلى حوالي ستمائة ألف في القرن العشرين ، بسبب القتل الذي تعرضوا إليه . وتشير كتب التاريخ إلى أن اكثر من ستة ملايين يهودي قتلوا من قبل النازيين في الأربعينات (1940) بحجة ((تنظيف أو تنقية)) العرق الأوربي . ويعلق أحد الباحثين (هيرش Hrsch,1995) انه بالرغم من مرور اكثر من نصف قرن على استئصال النازية ، وبعد تحرير معسكرات الاعتقال فأن السلوك المتعصب ((مايزال مستمراً دون أن تتكسر له شوكه ، ودون أن يلقى العقاب أو يتم تداركه . ففي ما كان يُعرف بيوغسلافيا ، ظل التعذيب والقتل والاغتصاب والتجويع يجري كممارسة يومية)) .

وفي زمن من تاريخها ، استوردت أمريكا أفارقة وجرى التعامل معهم بوصفهم عبيداً ، وجزءاً من الملكية الشخصية . وحتى النصف الأول من القرن العشرين ، كان معظم الأفارقة الأمريكيين يتم عزلهم ، بموجب القانون ، عن المطاعم ودور السينما وحافلات نقل الركاب ... وظلوا حتى بعد إلغاء قانون العزل ، يعيش معظمهم تحت خط الفقر . وليس الأفارقة الأمريكيين الأصليين هم الذين تعرضوا للتعصب العنصري في الولايات المتحدة فحسب ، إنما أيضا من أعراق أخرى ، يعيشون تحت خط الفقر وليس أمامهم سوى العمل الخدمي .

وفي التسعينات (1995) شهدت رواند وبوروندي نزاعاً اخذ شكل الإبادة البشرية genocide بين جماعتين هما التوتسي والهوتو. وكان الفرق أو الاختلاف بين التوتسي (وهم الأقلية العددية ، ولكنهم الطبقة الاجتماعية الاقتصادية العليا) والهوتو، هو في المستوى الاجتماعي وليس فرقاً في اللغة أو العرق أو الثقافة . وقد حدثت حرب أهلية بين رواند و بروندي ، بالرغم من أن أجيالا منهم كانوا يتزاوجون فيما بينهما ، لدرجة أن الاختلاف في الشكل والبنية الجسدية ما عاد ملحوظاً بين أفراد الجماعتين .

وفي السبعينات (1975) شهدت لبنان حرباً أهلية بسبب التعصب الديني والطائفي . ويوجد التعصب (و التحيز و التمييز) في كل المجتمعات العربية من دون استثناء ، وان اختلفت أسبابه وصوره أو حالاته .

في العراق، أخذ التعصب ثلاث صور واضحة، هي:

1- التعصب الإجتماعي:

ويحصل هذا في محدودية التزاوج القائم على أساس العرق أو الدين أو الطائفة . فبعض العشائر الكردية لا تعطي امرأة لعربي . وبعض العشائر العربية لا تعطي امرأة لكردي . وغير مقبول أن يتزوج المسيحي من مسلمة . والأسرة المسيحية لا تعطي امرأة لمسلم . وقد يحصل أن يتزوج مسلم من امرأة مسيحية ، ولكن بعد أن تترك دينها وتدخل في الإسلام ، إلا في حالات نادرة يكون فيها النضج الثقافي لدى الطرفين في أعلى درجاته . وقل الشيء نفسه فيما يتعلق بالأديان الأخرى ، وان حصلت حالات فهي من النوادر .

وإذا تحدثنا بصراحة أكثر فأن هنالك مدنا ذات طابع سنّي لا تعطي امرأة لشيعي . ومدنا ذات طابع شيعي لا تعطي امرأة لسنّي . وهنالك أسر في العراق يطلق عليها اسم ((السادة)) – أي الذين يرجعون بنسبهم إلى النبي محمد(ص) – لا تعطي امرأة إلا لمن كان ((سيداً)) . بل أن هناك اسراً من ((السادة)) في عشيرة معينة ، تحصر زواج بناتها في داخل نسبها أو عشيرتها ، ولا تعطي امرأة لشخص آخر حتى لو كان من ((السادة)) ، ولن تعطيها بالمطلق حتى لو ((تبور!)) .

وبالرغم من ان هذا النوع من التعصب ليس فيه أذى عام ، إلا أن له آثارا نفسية سلبية تتعلق بتفضيل اجتماعي واعتباري ((للأنا)) على ((الآخر)) قد لا يكون صحيحاً ، وليس مبرراً، فضلا عن انه غير منطقي .وكان من النتائج المؤلمة لهذا التعصب أن أقدم " أبو العيال " مختارا أو مجبرا أو مضطرا الى تطليق زوجته " أم العيال " بسبب الاحتراب الطائفي بين السنّة والشيعة ، لاسيما في أحياء بغداد بدءا من عام 2005 وما بعده .

2 - التعصب المؤسسي.

ويقصد به احتكار مواقع اتخاذ القرار في السلطة والمراكز الحساسة والمؤثرة في مؤسسات الدولة لطائفة معينة. ويشير واقع الحال إلى أن اكثر من (75%) من هذه المواقع والمراكز شغلها أشخاص من طائفة معينة ، منذ تأسيس الدولة العراقية عام (1921) لغاية سقوط النظام في (2003) . وهذا النوع من التعصب مؤذي اقتصادياً واعتباريا .

3 – التعصب السلطوي

وفيه يأخذ التعصب شكل الحروب التي تصل أحيانا إلى حدَّ الإبادة البشرية . وابرز حالاته ، التعصب العرقي ضد الأكراد، الذي مورس من قبل السلطات العربية التي توالت الحكم على العراق في تاريخه الحديث . ثم التعصب الطائفي ، الذي كشفت عنه المقابر الجماعية مؤخرا .

ويقودنا التحليل الى أن الحالة السيكولوجية الخطيرة التي تعيشها الآن طائفتا السنّة والشيعة في العراق ، أن إحداهما كانت في السلطة والأخرى في المعارضة على مدى ألف وثلاثمائة عام ، وأن ما حصل بينهما بعد 2003/4/9 هو تبادل للأدوار يشبه في فعله النفسي تبادل الدورين بين من كان بيده الأمر فصار مهمّشا ،وصار المهمّش يأمر وينهي . ويشبه في خطورة وساوسه "البارانويه" تبادل الدورين بين "الضحية " و " الجلاّد ".

ولكي نفهم الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية للتعصب والصورة النمطية وما يترتب عليها من نتائج ، بهدف الوصول إلى مبتغانا المتمثل باقتراح أساليب أو وسائل لخفضها أو الحدّ منها ، ينبغي تحديد مفهومي التعصب والصورة النمطية .

إن المعنى الحرفي لكلمة التعصب في اللغة الإنجليزية (Prejudice) هو الحكم المسبق . فيما ينظر علماء النفس الاجتماعي للتعصب على انه اتجاه سلبي غير مبرر نحو فرد ، قائم على أساس انتمائه إلى جماعة لها دين أو طائفة أو عرق مختلف ، أو اتجاه عدائي نحو جماعة معينة قائم على أساس الانتماء إليها . ويعني أيضا النظرة المتدنية لجماعة أو خفض قيمتها أو قدراتها أو سلوكها أو صفاتها ليس لها أساس منطقي . كما يعني أيضا إصدار حكم غير موضوعي بشأن جماعة معينة . وهو اتجاه مؤذي قائم على تعميمات غير دقيقة بخصوص جماعة على أساس اللون أو العرق أو الدين أو الجنس ، أو أي فرق أو اختلاف آخر قابل للملاحظة ، يتضمن شيئا سلبيا قائما على اعتقاد الشخص بشأن جماعة أخرى غير جماعته .

1.3. ما سبـــــب نشـــــوء هذا التعصـــــــب؟

والجواب يكمن في ((الصور النمطية Stereotypes)) بوصفها المكوّن المعرفي للاتجاه التعصبي ، والتي تعني تحديدا : تعميمات غير دقيقة يحملها الفرد بخصوص جماعة معينة ، ولا تستثني أحدا منها .. وقد تكون هذه التعميمات إيجابية وقد تكون سلبية . والتعميم الإيجابي يتضمن صفة جيدة أو مفضّلة يضفيها الفرد على جماعته التي ينتمي إليها ، ولنفترض أنها (س) فيقول : إن جميع المنتمين إلى (س) أذكياء أو طيبون مثلا . فيما يتضمن التعميم السلبي صفة سلبية أو غير مفضلة يضفيها الفرد على الجماعة الأخرى التي تختلف عن جماعته في العرق أو الدين أو الطائفة ، ولنفترض أنها (ص) فيقول : إن جميع المنتمين إلى (ص) هم أغبياء وشريرون مثلا . وهكذا يتبين لنا أن الصور النمطية (Stereotypes) – وهي في الأصل مستعارة من عالم الطباعة التي تعني القالب الذي يصعب تغيره بعد صنعه– سواء كانت إيجابية أم سلبية هي أحكام خاطئة أو غير دقيقه ، و أنها تكون مؤذيه لثلاثة أسباب :

الأول : إن الصور النمطية تسلب قدرتنا على التعامل مع كل عضو في الجماعة على انه فرد بحد ذاته . ذلك ان المضمون النفسي للصور النمطية الاجتماعية يعني تصورات مجردة بالغة التبسيط والتعميم يحملها الناس عن جماعتهم أو عن جماعة أخرى . فعندما نحمل صورة نمطية عن جماعة ، فإننا نميل إلى أن نتعامل مع كل عضو فيها كما لو كان شخصاً يحمل كل صفات الجماعة ، بغض النظر عما إذا كان هذا الشخص يحمل تلك الصفات أم لا . وحتى لو كانت الصورة النمطية صحيحة جزئياً أو قائمة على حقيقة معينة ، فإن الكثير من أفراد تلك الجماعة سوف يختلفون عن الصورة النمطية لجماعتهم بأمور جوهرية .

إن أحد أشكال الأذى الذي ينجم عن ذلك هو أننا إذا كانت لدينا صورة نمطية عن جماعة عرقية أو طائفية معينة بأنها قليلة الذكاء مثلاً، فإن النتيجة الخطيرة المترتبة عليها أن الفرص التربوية و الوظيفية لجميع أفراد تلك الجماعة ستكون قليلة إن لم تكون معدومة .

الثاني : إن الصور النمطية تقود إلى توقعات ضيقة بخصوص السلوك . فصورنا النمطية تقودنا إلى أن نتوقع بأن أفراد جماعة معينة سيتصرفون جميعهم من دون استثناء بطريقة معينة . ففي سبيل المثال ، نحن نتوقع من النساء أن يتصرفن جميعهن بطرائق مهذبة ، وبتعاون وعطف وشفقة ، فيما نتوقع من الرجال أن يتصرف جميعهم بأساليب خشنة وعدوانية وتنافسية . وما ينجم عن هذا ان الفرد ، سواء كان رجلاً أم امرأة ، إذا تصرف بطريقة لا تتطابق مع الصورة النمطية التي نحملها عن الجنس الذي ينتمي إليه، فإننا سننظر له كما لو كان شاذاً.

وعليه ، فإن الصور النمطية يمكن أن تكون قوة محددة للأشخاص الذين لا يتطابق سلوكهم مع توقعاتنا الضيقة .

والثالث : إن الصور النمطية تقود إلى عزو خاطئ . فعلى وفق نظرية العزو القائمة على فكرة أن الناس يكونون مدفوعين لاكتشاف الأسباب الأساسية للسلوك كجزء من جهودهم لأن يجعلوا معنى لتصرفاتهم من خلال وصولنا إلى تعليلات سببية لما يصدر عن الآخرين وعن أنفسنا من سلوك في المواقف الحياتية المختلفة ، فإنه غالباً ما يعزى السبب إلى مصدرين : داخلي أو ذاتي يخص الشخص القائم بالسلوك ، وخارجي يخص الآخرين أو الموقف الذي نكون فيه .

وما يحصل لدى الفرد المتعصب انه يعزو الصفات الإيجابية إلى شخصه والى جماعته التي ينتمي إليها ، ويعزو الصفات السلبية إلى الجماعة الأخرى التي يختلف عنها في القومية أو الطائفة أو الدين .

والمؤذي في ذلك ، انه في حالة حصول خلاف أو نـــزاع بين جماعته والجماعة الأخرى فإنه يحّمل الجماعة الأخرى مسؤولية ما حدث من أذى أو أضرار ، ويبرئ جماعته منها ، حتى لو كانت جماعته شريكاً بنصيب اكبر في أسباب ما حدث .

ونستزيد أكثر فنقول : إن علماء النفس الاجتماعي انشغلوا لعقود من الزمن بدراسة الصور النمطية ، وتوصلوا الى أن انطباعاتنا الأولى عن الآخر تنشأ أو تقوم أساسا على توقعاتنا المسبقة . فحيثما ندرك موضوعا أو حدثا ما فأننا نقوم داخليا بتصنيفه من خلال مقارنة المعلومات القادمة إلينا بما تخزنه ذاكرتنا من موضوعات أو حوادث سابقة مماثلة ،استقرت فيها على شكل مخططات Schemas . ويعني المخطط (نظرية) عن الكيفية التي يعمل بها العالم المادي والاجتماعي ، بأن تقسّم (الناس، الأشياء، الحوادث، والمواقف) الى أصناف تأخذ صيغة مكوّن معرفي تساعدنا على إدراك وتنظيم ومعالجة المعلومات . وبهذا يكون المخطط ، معارف ومعتقدات منظّمة بخصوص عالمنا الاجتماعي . وكما تستعمل المخططات في التعامل مع الأشياء والحوادث الجديدة ، بأن نبحث في الذاكرة عن المخطط الأكثر اتساقا معها ، فأننا نستعملها أيضا مع الناس الذين نقابلهم أو نعيش معهم . فنحن نصنف الأفراد على أساس خصائص معينة مثل : العرق ، الجندر أو الجنس ، العمر ... أو بعلاقتهم بهويتنا الاجتماعية مثل (نحن مقابل هم) . بل أننا نصنفهم أحيانا حتى على أساس المنشأ أو الانتماء الجغرافي . تأمل ذلك في العراقيين عندما يقابل أحدهم شخصا يقول له أنه من : البصرة أو سامراء أو الموصل أو العمارة أو الناصرية ...فأنه يتصرف معه بمعالجة المعلومة بناء على الصنف الاجتماعي أو الجغرافي أو العرقي ...أو أي صفة أخرى تكون لها دالة على انتماء الشخص .

والذي لا نعلمه أن الصور النمطية تعمل فينا وتقرر سلوكنا بنشاط تلقائي (أوتوماتيكي) . تأمل ذلك – مرّة أخرى – في العراقيين عندما يتعرف أحدهم على شخص يقول له انه من : شمّر مثلا ، أو زوبعي ، أو ياسري ...، أو تكريتي ، أو بصري ، أو عاني ، أو كوفي ، أو مصلاوي ...،فأنه يتصرف معه بطريقة معينة ، حتى ليصبح الأمر في تصنيفم للناس على أساس : (المدينة، أو العشيرة، أو الجنس، أو العرق ...) يشبه عملية قيادتهم للسيارة ... أعني عملية تلقائية أو تعودية ، تعمل على مستوى يكون خارج درايتنا به .

والذي لا نعلم به أيضا ، أن الصور النمطية تعمل ترابطات أو اقترانات وهمية بين أحداث أو موضوعات غير موجودة في الواقع ، تدفعنا الى أن نعمل استدلالات نبني عليه أحكاما غير دقيقة . خذ، في سبيل المثال، الترابطات أو الاقترانات الوهمية الآتية عند العراقيين :(المصلاوي والبخل ، البصراوي وخفة الدم ، الكوفي والغدر، الشروكي– العمارتلي بشكل أخص– وقلة الذوق، الدليمي والفطارة ..)

والأمّر من ذلك أن هذه الأوهام تتحكّم في الكثير من تصرفاتنا ونحن عنها غافلون !. وأننا لن نكون في مأمن من الكارثة حتى لو وصفنا أنفسنا وتحدثنا عبر القنوات الفضائية بأننا نعشق الديمقراطية قولا وفعلا ، فيما نحن في بيوتنا ومع أهلينا متعصبون حدّ النخاع !.

2.3. التعصـــــــب العرقـــي Ethnocentrism

يعدّ التعصب العرقي اخطر أنواع التعصب و أكثرها أذى . وتعنى العرقية Ethnocentrism، النزعة لدى الفرد نحو **تفضيل** الجماعة التي ينتمي إليها على باقي الجماعات الأخرى . ونظرته إلى جماعته على أنها مركز كل شئ ، والحكم على الآخرين بمقاييسها . وتميل الجماعة العرقية إلى ان تضع نفسها فوق الجماعات الأخرى ، وتنظر بازدراء إلى الغرباء عنها ، وتعتقد أن طريقتها في الحياة هي الطريقة الصحيحة .

وثمة حقيقة نفسية خافية عن الناس هي انهم يحابون جماعتهم العرقية، وينظرون إلى أعضائها بمنظار غاية في المحاباة . إذ يرون أنفسهم بأنهم يمتلكون صفات لطيفة ، وسلوكاً مهذباً ، وانهم محبوبون للغاية . والعامل المزاجي في هذه الحقيقة النفسية هي ان الناس ينـــزعون إلى تصنيف عالمهم الاجتماعي الى صنفين ((نحن)) و ((هم)) . وانه من هذا التقسيم ينشأ التعصب و الصراع و التحيز و التمييز .

وما يدعو للدهشة والتأمل ان أفراد الجماعة العرقية ينزعون الى رؤية قدر كبير من الاختلاف (لا التشابه) فيما بينهم كأفراد، فيما يرون قدراً اكبر من التشابه (لا الاختلاف) بين أفراد الجماعة الأخرى . لنأخذ صفة الكرم في سبيل المثال . فعندما يطبقونها على أنفسهم ، فانهم يرون في أعضاء الجماعة التي ينتمون إليها من هو كريم ، ونصف كريم ، وبخيل ، وبخيل جداً . أما إذا طبقوها على أفراد جماعة عرقية أخرى ، فهم يرون فيهم جميعاً ، بخلاء دون استثناء . وقس على ذلك خصائص أخرى ، مثل : الذكاء ، الصدق ، الأمانة، الشجاعة... وما يعاكسها من صفات . (تفحص نفسك وتفحصها بين العراقيين) .

وعلينا أن نعترف بحقيقة نفسية أخرى ، هي حاجة الإنسان إلى هويتين : واحدة للذات وأخرى اجتماعية . الأولى تمثل كينونته ووجوده و(أناه) الخاص به . والثانية تمثل عضويته في جماعة مرجعية (قومية، دينية، مذهبية ...) . ونشير هنا الى أن الاعتزاز بالقومية أو الدين أو المذهب ، يحقق حاجتين نفسيتين لدى الإنسان : الحاجة الى هوية اجتماعية والحاجة الى الانتماء ، وهما حاجتان إنسانيتان مشروعتان ، شرط أن لا تكونا مصابتين بالتضخم الذي يقود الى الاستعلاء ، أو الإحساس بالنقص الذي يفضي الى الشعور بالاضطهاد ، وكلاهما من صنف (البارانويا) . وأبشع ما في البارانويا أنها اذا ما تمكنت من صاحبها فأنه يصاب بهذيان (لأتغدى به قبل أن يتعشى بي) ، ولن يرتاح إلا بعد أن يفعلها ، وهذا ما يحصل الآن بين العراقيين ، لدرجة أن القتل صار يستهدف من أسمه " عمر " و "حيدر " و "كاكا سيروان" !.

ان للعربي الحق في أن يعتز بعروبته ، والحق نفسه للكردي في أن يعتز بكرديته ، وكذا التركماني والقوميات الأخرى . وكما للسنّي الحق في الإيمان بمذهبه ، فأن للشيعي الحق نفسه في الإيمان بمذهبه ، وكذا اليزيدي ومن هو على مذهب أو دين آخر .

غير أن الجانب السلبي في الهوية الاجتماعية يبرز عندما يعمد صاحبها، شعوريا أو لا شعوريا ، الى إعلاء مكانة واعتبار الجماعة التي ينتمي إليها، وتفضيلها على الجماعات الأخرى .

والغالب في مجتمعنا العراقي ، أن الجماعات المرجعية العرقية تميل إلى أن تهتم اكثر بتغذية الجانب السلبي من هذه الهوية في تنشئة أطفالها ، وتعزيزه في الحديث اليومي للراشدين منهم ، والتركيز عليه في خطاباتها السياسية والثقافية والدينية بأن تعمد إلى تضخيم ما أصابها من حيف أو ظلم من الجماعات الأخرى (بمعنى انهم طيبون والآخرون أشرار)، او الإكثار من تمجيد تاريخها والزهو به،لا بصيغة تبيان حقيقة موضوعيه واعتزاز مستحق إنما بصيغة تحمل، تصريحاً او تلميحاً ، أفضليتها على الجماعات الأخرى ، وإنها كانت ، عبر تاريخها الطويل ، منزّهة من كل خطأ ، وإن كانت ارتكبته فأن الآخرين كانوا هم السبب !. وهذا لسان حال كل الجماعات في كل المجتمعات ، ظالمة كانت أم مظلومة ، حتى لتحسبها سجية في البشر !.

وما لم ينضج وعينا الى مستوى إدراك أن حق الآخر مشروع كمشروعية حقنا ، ونرتقي تلقائيا الى سلوك مهذب يحترم الهوية الاجتماعية للآخر، فأن الحال يؤول الى ما يمكن تسميته (حرب المعتقدات) . والمشكلة أن المعتقد اذا ما أصيب بـــ (الالتهاب) يصير هو (فيروس) التعصب ..ينتشر بين (نحن مقابل هم) في عدوى هستيرية تشعل حربا تكون أشد ضراوة وأكثر سخفا من حروب الأيديولوجيات .

3.3. أسبـــاب التعصـــب والصـــور النمطيـــة وسبل خفضــه

تمثل الصور النمطية المكوّن المعرفي لاتجاه التعصب . ونعيد إلى الذهن بأن الصورة النمطية Stereotype تعني : تعميمات أو أحكام غير موضوعيه بخصوص جماعة معينه، لا تستثني من أفرادها أحدا، بالرغم من وجود اختلافات حقيقة فيما بينهم . ويمثل التمييز Discrimination المكوّن السلوكي لاتجاه التعصب . ويعني التمييز: فعلاً عدائيا أو سلبياً أو مؤذياً غير مبرر نحو أفراد من جماعة قائم أساساً على عضويتهم في تلك الجماعة، وليس لسبب آخر . وهذا يعني أن أي إنسان يمكن أن يكون هدفاً للتعصب .

ويمكن تحديد أربعة جوانب في الحياة الاجتماعية تفضي إلى التعصب هي :

الطريقة التي **نفكر** بها، والطريقة التي من خلالها **نضفي المعنى** على الأشياء، والطريقة التي **تخصص** بها موارد العيش والثروة، والطريقة التي **نتمثل** بها المعايير والقواعد الاجتماعية .

إن عملية الإدراك أو التعرف الاجتماعي مهمة في خلق الصور النمطية التي تفضي إلى التعصب . والخطوة الأولى في نشوء التعصب تبدأ بتصنيف بعض الأفراد في جماعة واحدة على وفق صفات أو خصائص معينة ، ووضع الآخرين في جماعة أخرى على وفق صفاتها أو خصائصها المختلفة . فالفكرة الأساسية في الإدراك الاجتماعي هي أن تجميع التنبيهات يكون قائماً على أساس ما بينها من **تشابهات**، ومقابلتها بتنبيهات على أساس ما بينها من **اختلافات** . ومن هذه الفكرة تنشأ عملية عقلية أخرى تقسّم الناس الى ما اصطلح على تسميته بـــ ((داخل الجماعةIn- group)) و ((خارج الجماعة Out-group)) . ومن هذه العملية ينجم ما نريد ان نسميه بـــ ((**الحَوَل الادراكي**)) ، وهو مصطلح منّا نريد ان ندخله في ثقافتنا . ويكون هذا الحَوَل على نوعين :

حَوَل **داخلي** : يرينا ما هو **إيجابي** في جماعاتنا **ولا** يرينا ما هو **سلبي** فيها .

و الواقع إننا جميعاً مصابون بهذا الحَوَل، والاختلاف فيما بيننا هو في الدرجة ليس إلا .

و إذا كان تصحيح الحَوَل البصري يتم من خلال عدسات معينة، فأن ((حولنا العقلي)) يمكن تصحيحه أيضا من خلال :

- التربية .
- الثقافة .
- الاختلاط .
- العدالة .

ففيما يخص التربية ، فإننا نعني بها كل أشكال التعليم الرسمي في المدارس و التنشئة الأسرية ، والتعّلم الاجتماعي بمجالاته المختلفة . وبما أن التعصب سلوك ، فانه يتم تعلّمه مثل أي سلوك آخر . فأذا كان الوالدان – في سبيل المثال – يحملان صورة نمطية سلبية عن جماعة تختلف معها في الطائفة أو العرق او الدين... فأن أطفالهما سيحملون الصورة النمطية نفسها ، ويتصرفون بنفس الطريقة . وإذا ما وجدوا تعزيزا لها من أقرانهم فأن تلك الصورة ستتقوى لديهم ، ويصعب من ثم تعديلها .

والملاحظ على المجتمع العراقي أن عقله محشو بصور نمطية لا تحصى، وبشكل عجيب غريب . ففضلاً عن الصور النمطية المتعلقة بالعرق والدين والطائفة والجندر (المرأة والرجل بالمفهومين النفسي والاجتماعي)... فأن فيه صوراً نمطية أخرى قائمة على أساس المدينة . فـ ((المصلاوي)) لدينا عنه صورة نمطية ، وكذا : البصراوي ، والنجفي ، والعاني ، وناصريه ، والدليمي... وأهل أربيل لديهم صورة نمطية عن أهل السليمانية ، والعكس موجود أيضا ، " وبعضهم على بعض يقول النكات !"..

و الأغرب انك تجد صوراً نمطية قائمة على أساس المحّلة : ابن الفضل ، ابن باب الشيخ ، ابن الشواكه ، كظماوي، معظماوي (وكلها أحياء سكنية في بغداد)... وما يجعلك تندهش أنهم يعِّدون أنفسهم مختلفين تماماً بعضهم عن بعض ، بالرغم من انهم يسكنون في محلات متجاورة . ولا تجد تفسيراً لذلك سوى انهم مصابون بـــ ((الحَوَل العقلي)) .

وثمة أربع ملاحظات

● الأولى ، إن " الموروث السيكولوجي البدوي " في رذيلة التعصب ما يزال يتحكم بنا لاشعوريا ، برغم أننا غادرنا الجمال والحمير الى المرسيدس والأيرباص ، وأننا تركنا بنات العشيرة السمراوات وتزوجنا الشقراوات عابرات المحيطات . فضلا عن أننا نجهل بأن هذا التعصب مصحوب برذيلة أخرى هي هاجس " بارانويا " الشك بالآخر والخوف من غدره .

● الثانية ، أن عقولنا ،نحن العراقيين بالذات ، تتحكم بها ما نجم عن أحداث مضى عليها قرون لا ما يمليه علينا الحاضر من أحداث وإدراك معاصر . وأن اللاشعور الجمعي للعامة من الناس قولب عقولهم من ألف سنة على حوار السيف بدلا من حوار الكلمة في خلافاتهم السياسية والفكرية .

● الثالثة ،إن العربي عموما مصاب بهوس الملكية الشخصية لثلاثة : **المرأة والأرض والسلطة** . أعني أنه اذا حصل على السلطة فان قيمه التي ورثها من ألف سنة تدفعه الى أن يعظ عليها بأسنانه ، وينفرد بها انفراده بزوجته.

● والرابعة ، أن نضج الوعي السياسي (الحالة التي يصل فيها العراقي الى أن ينتخب : الكردي عربيا والعربي كرديا والسنّي شيعيا والشيعي سنّيا ..." يبدو أنه يخضع لنفس قوانين النضج البيولوجي ..أعني أن يتم عبر مراحل. وأن " الشعب " هو الآن في مرحلة الرضاعة من وعيه بالانتخابات الديمقراطية .

ومع أنه من غير المعقول أن نطلب من رضيع " بدوي " القفز بالزانة ! ، فأن الكثير من السياسيين العراقيين يدّعون أن هذا ممكن ..ومطلوب أيضا ، مع أن أفضلهم نضجا لم يصل بعد مرحلة الحداثة ..في الممارسة ، برغم أنه يجيد صناعة الكلام بامتياز .

وبالعودة الى مناهجنا الدراسية (اعني تحديداً : كتب المطالعة والتربية الوطنية والديمقراطية وحقوق الإنسان...) فان عليها أن تنتبه للصور النمطية التي أشرنا الى عدد منها ، وتعمل على محوها ، خاصة بعد أن شاع بين تلاميذ المدارس سؤال بعضهم لبعض :" أنت سنّي لو شيعي ؟!".وهو أمر مخجل وخطير جدا على مستقبل الجيل القادم ، ينبغي على مناهجنا الدراسية معالجتها ، وان تلتقط موضوعات تعتمد الحوار وسيلة لحل النـــزعات بين الجماعات والأفراد . ويكون ذلك بتعاون مؤسسات الثقافة في بغداد والمحافظات . فالتربويون يجيدون اختيار مثل هذه الموضوعات، فيما المهتمون بالثقافة (لاسيما المعنيون منهم بثقافة الأطفال) يمتلكون الأسلوب المشوق في صياغة مفرداتها ، وسعة الخيال في جمالية صورها . وعليها ان تركز في مسألة غاية في الأهمية هي ان تعيد لقيمة ((**الحياة**)) اعتبارها بعد أن هوت من مكانتها السامية بفعل حروب كارثية ، ثم أجهز عليها الإرهاب ببشاعة الوحوش الضواري . فضلاً عن رخص حياة العراقي بعيون العسكري الأجنبي ((المتحضر جداً!)) .

ويبقى على الناس تعزيز وتعميق الاختلاط والاتصال الحميم فيما بينهم . غير ان هذا لن يكون – كما ينبغي – ما لم يشعر الجميع بأنهم متساوون في المكانات، وان توزع الثروة بينهم بالعدالة ، ليحيوا الصلات الاجتماعية القديمة المعروفة عنهم بروح عصرية جديدة ، بعد أن أرعبها انعدام الأمن الذي اجبر الناس على الهجرة أو الجلوس في بيوتهم ، أو القبول بالموت على أنه قدر محتوم ، برغم يقينهم أنهم يلقون بأنفسهم الى التهلكة ..في أي شارع يمشون !.

أخـــيراً.

إن نقطة الشروع في تحقيق هذا المشروع ، هي أن **نعترف** جميعا بأننا مصابون بما اصطلحنا عليه : ((**الحَوَل الإدراكي**)) .. اعني انحيازنا الى جماعتنا ونظرتنا لهم بعين الرضا ، عين المحب للمحبوب ، والى الغير بعين تبدي المساوئ ، عين الكاره للمكروه . وان نكون **راغبين** حقاً في تصحيحه . ففي ذلك أجمل المنافع وأرقى الصفات ...أحوجها أن لا يوصف **السياسي** من العراقيين بأنه ((**أحول عقل**)) !.

والحقيقة أنني لا أستثني من هذا الحول أحدا ، فهو مرض شائع في العقل العربي والإسلامي ، ما يزال يشكل أحد أهم أسباب مآسينا وتخلفنا أيضا . وأنه ما لم يتم علاجه بإعادة صياغة ثقافتنا وخطاباتنا الدينية والسياسية والإعلامية ، واسهام المواقع الإلكترونية والصحافة التقليدية في تحرير الوعي الشعبي من أوهام ومعتقدات معبئة بالحقد والكراهية ... فأننا سنبقى نتعارك والعالم يضحك علينا . فأكثر مشاهد الكوميديا سخرية ، تلك التي يتعارك فيها مجاميع من الحولان !.

*ألقي في المؤتمر التأسيسي للمجلس العراقي للثقافة عمان – الأردن 14-2007/5/16